عبد السلام البسيوني
albasuni@hotmail.com

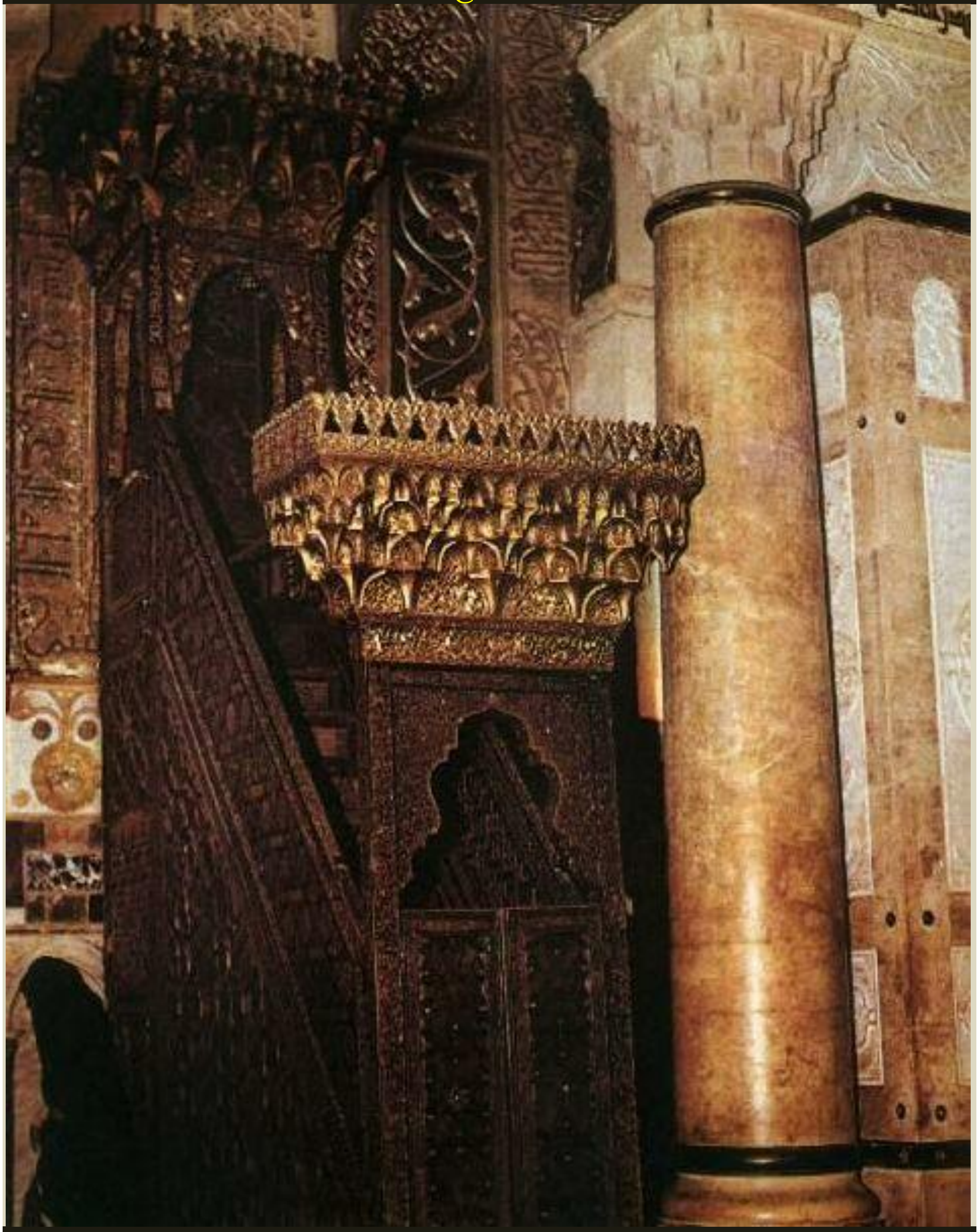

خطيب الجمعة

ومهمته في المجتمع

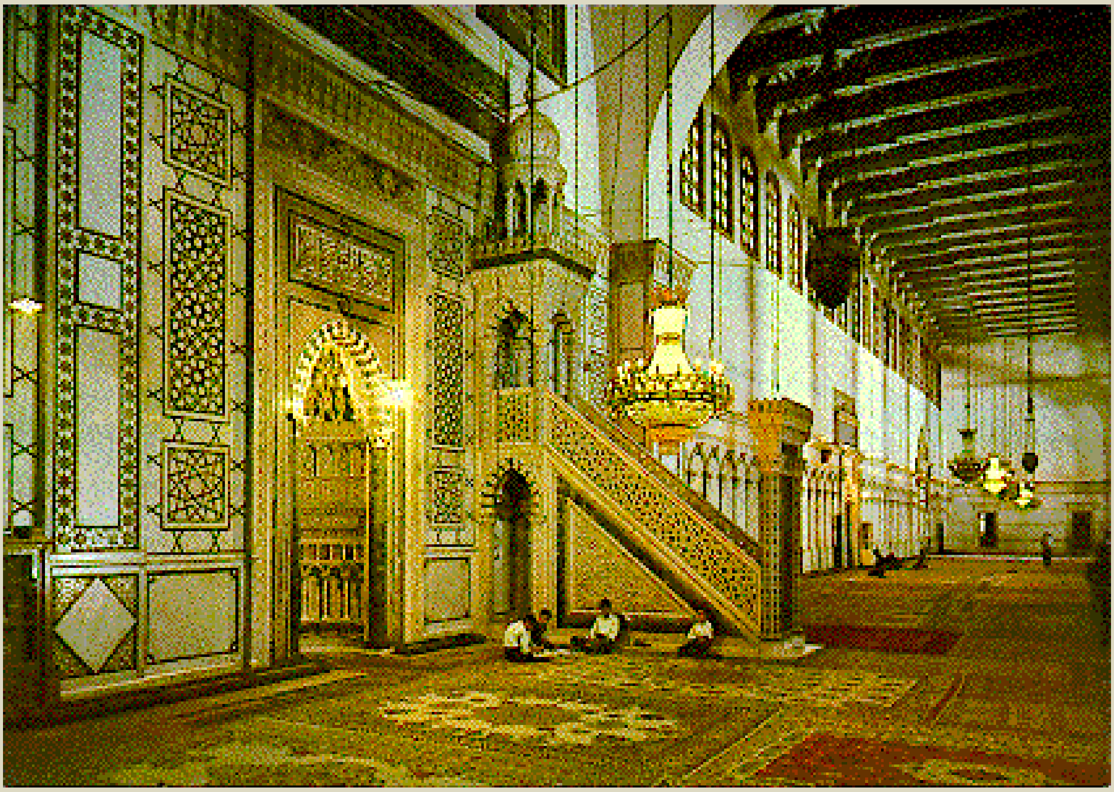

المسجد أحب البقاع إلى الله تعالى، والمدرسة الأولى التي يتخرج منها المسلم، وهو مجتمع المؤمنين، ومركز مؤتمراتهم، ومحل تشاورهم وتناصحهم، فيه يتعارفون، وعلى الخير يتعاونون، ومنه خرجت جيوشهم مشرقًا ومغربًا، وإليه يرجع مسافرهم أول ما يرجع، وبه يعزي المسلم أخاه، وفيه كانت تتم قسمة الغنائم، ولكنفه يأوي الفقير والمسكين وابن السبيل، فهو ملتقى الأمة وناديها وجامعتها، وهو برلمانها وديوانها.

" المسجد في الإسلام " بتصرف

محاضرة ألقيت في: 17/ 11/ 1991

مقدمة

حال المساجد والقائمين عليها

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه:

لا أشك لحظة أن أي مطلع على تاريخ الإسلام في أوج ازدهاره زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزمن الخلفاء الراشدين ، وأعلام الأمة ، يجد أن المسجد كان قلب دولة الإسلام النابض ، الذي يبعث في بدن الأمة دماء الحيوية والخصوبة والإبداع، كما كان أداة توثيق العلاقات بين المسلم والمسلم، وبين المسلم والمجتمع ككل، وبين المجتمع والحاكمين، وقبل ذلك كله بين المسلم وربه عز وجل.

ولكن لا يسعني في هذه المقدمة القصيرة إلا أن أشير إلى ما يحصل في المساجد – في بلاد المسلمين عامة – من تعمد لشل فاعليتها، وتقليص دورها، والاستهانة بالعاملين بها، وتحقيرهم: وظيفيًّا، وماليًّا، وقيميًّا، وتشويههم إعلاميًّا، وتصويريهم على أنهم طماعون، جهلاء، دنيويون، مجردون من الأخلاق، منافقون – وقل ما شئت من صفات مسيئة متنقصة – خصوصًا الدعاة الصدُق، والعلماء العاملين!

ولا ينجو من ذلك إلا الرسميون المرضِي عنهم، من الذين يدورون في فلك النظام، يسبحون بحمده، ويقدمون له الصلاة، ويسوغون جرائمه، ويضفون المشروعية على انتهاكاته ومجاهراته بالسوء، ويقدمونه على أنه الأكمل والأعدل والأتم، حتى قال

بعضهم – وبئس ما قال – إن فلانًا مرسل قبل أن يولد، وإن علانًا أعدل من عمر، وفلتانًا بمنزلة الذي لا يسأل عما يفعل، ويتقدمون للبيعة للظلوم الكَفار مدى الحياة! مشاركين بإخلاص شديد في تجريف دين الأمة، وهدم ثوابتها، وتلويث قيمها، في مقابل رفع شأن الطواغيت، والظلمة، والعلمانيين، والراقصات، والفتانين، وكل المستبيحين، حتى قال القائل إن وزارات الأوقاف في العالم الإسلامي إنما أنشئت لتبرير تفرعن الفراعنة، وظلم الظلمة، وإضفاء المشروعية على حكمهم، مع ما يلحق الدعاة الصادقين، من إهانة وظلم وإقصاء، وحتى قيل إن الدعاة الرسميين دائمًا دعاة سلاطين، وجوقة مزمرين، للعازف الأوحد الجالس على الكرسي!

ولقد رأينا ما فعل مفتو مبارك والقذافي وبشار وبن علي والشاويش صالح، ومستخدَموهم الرسميون، الذين أباحوا قتل المسلمين، وأعطوا العسكر صكوكًا (شرعية وزي الفل) لاستئصالهم، وتدمير أسرهم، وتشتيت شملهم، وترويع نسائهم وأطفالهم، وانتهاك حرماتهم..

وهم الذين أفتوا بالقتل في رابعة، وفي سيناء، وميادين الثورات العربية!

وهم الذين شاركوا في الدعاية للعسكر، والدعاء لهم على المنابر؛ قاتلهم الله أنى يؤفكون!

ولا يسعني أيضًا إلا أن أشير إلى أنه لا حرمة لأهل العلم الشرعي؛ إذ يجترئ عليهم كل أحد في بلاد المسلمين، ويهينهم كل رويبضة، في حين أن المساس بصحفي (مطبلاتي) جريمة؛ لأنه مساس بالسلطة الرابعة، وحبس للحرية، وقصف للأقلام..

وأزعم أن أهل العلم هم أولى الناس بالاحترام والحرمة، وهم أحق الناس بالحماية والصيانة، بل إذا كانت الصحافة هي السلطة الرابعة فعلماء الشريعة المشرفة هم السلطة الأولى؛ لو وضعت الأمور في موضعها الصحيح، لكننا في زمن تغول الباطل، وتمكن الشر، واستعلاء النفاق!

كما أشير – بحكم تجربة ميدانية طويلة – إلى أن جل العاملين في جل المساجد، وفي حقل الدعوة غير مؤهلين، ولا مدربين، بل كثير منهم علماء بالصدفة،

ودعاة بالصدفة، ومفتون بالصدفة، وأئمة بالصدفة، لذا فأكثرهم بلا تأثير صحيح راشد، ولا هيبة في قلوب الناس!

كما أن رواتبهم أقل كثيرًا من رواتب أشباههم، ومن يعادلونهم في سنوات الدراسة والخبرة والتأثير! من أيام دنلوب وكرومر والخواجات المحليين الذين تبنوا مناهجهم! حتى يبقى تحتى منحنى الحاجة، أو سيطرة الراتب ومن يدفعونه، مع التضييق في الوقت نفسه على الدعاة المستقلين، ولو كانوا أعلم أهل الأرض، ومنعهم من الخطابة، والعمل والارتزاق!

وقد رأيت في بعض وزارات الأوقاف دعاة لا يحملون أكثر من شهادة لا إله إلا الله وآخرون معهم الدكتوراه في الحديث أو التفسير أو الأصول، وكلهم بنفس المرتب وعلى نفس الكادر، لأن الأمر أمر هوى، وعلاقات، ومحسوبيات، وليس مؤسسيًّا، ولا منهجيًّا، ودعويًّا!

وأزعم أن هذا كله أمر مقصود لتحجيم أثر الدين، وتحقير أهله، وفسح المجال للجحود، والمروق، والتمرد، على حساب الثوابت والقيم والعقيدة والشريعة!

ومن البلايا الكبيرة التي تحل بالأمة – عمدًا أو جهلا وسوء فهم – انتشار المساجد الفئوية، وتحولها لبؤر تعصبية، تسيطر عليها مجموعات ذوات انتماء لتيار أو فكر إقصائي لا يرى إلا نفسه، ويحقر الآخرين بشكل لا دين فيه ولا مروءة، ولا فقه، ولا وعي! فهذا مسجد للسفليين وحدهم، وذاك للإخوان، وذلك للتبليغين، وذلكم للمتصوفة، وذياك للعدل والإحسان! وأحيانا يكون بالدولة – في الغرب – فهذا للمغاربة، وذاك للأفاركة، وذياك لل...

وتكون النتيجة التهارج والتهاجر، والعيب والحرب، مع أن جل من يقومون عليها غير دارسين للشريعة، وربما ولا غير الشريعة، ويتصرف أحدهم كأنه مالك بن أنس، أو ابن قيم الجوزية، أو العز بن عبد السلام!

ومن البلايا الكبيرة التي تحل بالأمة إقامة مساجد وجمعيات وجماعات ضرار، ليس من ورائها إلا المكايدة، والتخطيط ضد الوجود الإسلامي، والاجتهاد لضرب الصحوة، وشل فاعلية الدعاة الوعاة ذوي البصر والاقتدار، وإبعادهم!

وبعيدًا عن التوسع الإنشائي، وقعقعات الألفاظ، سأسوق بعض الشواهد الثابتة بالسنة الصحيحة، عن دور المسجد في عز دولة الإسلام، لتتم المقارنة بين ماضٍ عظيم وحاضر أليم، وبين فاعلية حركية رائدة وسكونٍ أشبه ما يكون بالغيبوبة أو الاحتضار، وبين احترام للمسجد، وانتهاك لحرماته وعُمّاره!

هذا وصل اللهم وسلم وبارك على سيدي رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد السلام البسيوني

هذا الموضوع محاضرة قديمة ألقيتها في الدوحة في 17 نوفمبر 1991 للأئمة والخطباء في الدوحة، ضمن دورة لعدة أيام، شارك فيها عدد من العلماء المباركين: الأستاذ الدكتور العالم الرباني حسن عيسى عبد الظاهر، والشيخ الجليل عبد التواب هيكل، والشيخ الفاضل أحمد زيدان، والأستاذ محمد محيي الدين الأصفر، والأستاذ الدكتور علي محيي الدين القره داغي رحم الله تعالى من مات منهم ورحمنا، سائلاً ربي تبارك وتعالي ألا يحرمنا أجرها، وأن يُبق ي أثرها، وأن يستر صاحبها فوق الأرض، وتحت الأرض، ويوم العرض؛ إنه خير مسؤول، والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدي رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

المسجد والعبادة:

يعتقد كل مسلم واعٍ أن المسجد هو أطهر مكان، وأطيب بقعة على ظهر الأرض، تبعث على صفاء النفس، وسمو الروح، والمعراج القلبي المصفى، فالمساجد كما روى مسلم في صحيحه عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (أحب البلاد إلى الله مساجدها)!

وفي صحيح الترغيب والترهيب عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: (أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ : أيُّ البلدانِ أحبُّ إلى اللهِ، وأيُّ البلدانِ أبغضُ إلى اللهِ؟ قال : لا أدري، حتى أسأل جبريلَ، فأتاه جبريلُ، فأخبرَه : أنَّ أحسنَ البقاعِ إلى اللهِ المساجد، وأبغضَ البقاعِ إلى اللهِ الأسواقُ)!

لذا أمر الله تعالى أن يعتني المسلمون بالمسجد؛ عمارة وتطهيرًا وتطييبًا وتفعيلاً، ففي صحيح سنن ابن ماجه عن أمنا عائشة رضي الله تعالى عنها: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتخذ المساجد في الدور، وأن تطهر وتطيب.

والسعي إلى المساجد قربة ترفع الدرجات، وتحط السيئات، فقد صح في مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (من تطهر في بيته، ثم مضى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة).

والمكث بالمسجد كالرباط في سبيل الله تعالى ؛ كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا أن مما يرفع الله به الدرجات، ويمحو به الخطايا: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط).

وانتظار الصلاة – فوق كونه رباطا – صلاة أومثل الصلاة في ثوابه، فقد صح عند الشيخين وغيرهما من أكثر من طريق عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة).

بل إن هناك نكتة لطيفة يمكن أن يلحظها النظر العابر من حادث الإسراء والمعراج، فإن المصطفى صلى الله عليه وسلم انطلق في معراجه الحسي والروحي إلى سدرة المنتهى، من المسجد بدءًا وإلى المسجد انتهاءً، إذ أسرى به ربه عز وجل (من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى).

المسجد ملتقىً للفقراء:

ولقد كان المسجد مأوى الفقراء والعابرين وأبناء السبيل، إلى رحابه يلجؤون إذا أعوزهم مكان. كما كان مأوى أصحاب الصُّفّة من فقراء المهاجرين الذين لم يكن لهم بيوت ولا أموال، كما كان مأوى المهاجرين الذين جاؤوا إلى المدينة في بذاذة وفاقة.

وقد ورد في البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ننام في المسجد، ونقيل فيه ونحن شباب، بل كان المسجد مأوى للزوج إذا غاضب امرأته ولم يجد مكانًا يأوي إليه ، كما أخرج البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء وعليّ مضطجع في المسجد، وقد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه ويقول: قم يا أبا تراب!

المسجد والنساء:

لم يَحُل الإسلام بين المرأة وشهود الخير مع المسلمين، فقد كان المسجد مدرسة للمسلمات، يتعلمن به الدين والأحكام، وقد كانت إحداهن تأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتسأله عن أخص خصوصياتها دون تردد.

وصح في البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الفجر فيشهد معه نساء من المؤمنات الصلاة، متلفعات في مروطهن، ثم يرجعن ما يعرفهن أحد.

وقد خصص النبي صلى الله عليه وسلم بابًا للنساء في مسجده الشريف، كما ورد في سنن أبي داود عن ابن عمر، ولئن عمر رضي الله عنه ينهى الرجال عن الدخول من باب النساء؛ كما ورد في أبي داود.

وقد طلبت النساء من النبي صلى الله عليه وسلم أن يخصص لهن دروسًا ففعل، كما ورد في البخاري عن سيدي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

وكان إذا وعظ الناس في العيدين يأتي النساء فيعظهن، ويذكرهن، ويأمرهن بالصدقة كما في الصحيحين!

المسجد والأطفال:

وكما كان المسجد مثابة للرجال والنساء، كان مهوى لقلوب الصغار، على اختلاف أعمارهم – مميزين وغير مميزين ورُضعًا – وقد صح في أحمد والنسائي والحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطال السجود ذات مرة ؛ حتى ظُنَّ أنه عليه الصلاة والسلام يوحى إليه، أو حدث له أمر ، بينما كان أحد سبطيه قد ارتحله، فلم يعُجله عليه الصلاة والسلام حتى قضى نُهمته (صحيح سنن النسائي عن سيدي شداد بن الهاد الليثي، رضي الله عنه مرفوعًا).

كما أخرج الشيخان ، عن سيدي أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه)!

المسجد معهدًا للتعليم:

لقد كان المسجد المدرسة العامة الأولى في دولة الإسلام، من خلال التطبيق العملي للرسول، ومن خلال السنة القولية الصحيحة.

فكم كان عليه الصلاة والسلام يجلس بين أصحابه معلمًا وموجهًا، وناصحًا ومصححًا، وكم حث صلى الله عليه وسلم على طلب العلم ، والاجتماع عليه في المساجد، بمثل ما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده).

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يفهمون هذا، ويوجهون الناس له، فقد روى الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بسوق المدينة ، فوقف عليها، وقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم!

قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذلك ميراث النبي صلى الله عليه وسلم يقسم وأنتم ها هنا! ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟

قالوا: وأين هو؟، قال: في المسجد، فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لم يبرح مكانه حتى رجعوا، فقال لهم: ما بالكم؟

فقالوا: يا أبا هريرة: قد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر شيئا يقسم!

فقال لهم: وما رأيتم في المسجد أحدًا؟

قالوا: بلى، رأينا قوما يصلون، وقوما يقرؤون القرآن، وقوما يتذاكرون الحرام والحلال!

فقال لهم أبوهريرة رضي الله عنه: ويحكم! فذاك ميراث النبي صلى الله عليه وسلم.

المسجد مقرًّا للحكم:

ولم تقتصر وظيفة المسجد على الدور العبادي أوالتعليمي، بل كان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يستقبلون الوفود، ويجيشون الجيوش، ويبعثون الرسل والسفراء، وفي رحابه كان الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، كما كان في المسجد وَضْعُ لبنات الدولة الإسلامية – بمعناها الواسع – ففي المسجد خطب أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية ومن بعدهم – رضي الله عنهم أجمعين – خُطب تولي الخلافة، وعقدت لهم البيعة بين سواريه كما يتناثر في كتب السيرة الشريفة!

المسجد محكمة:

وقد كان المسجد – بجانب ما مر – مكانًا للفصل في الخصومات ، وفي المنازعات التي يجريها الشيطان بين بعض المسلمين.

ففي البخاري أن سيدي كعب بن مالك رضي الله عنه تقاضى ابن أبي حدرد دينًا كان له عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف عن سجف حجرته ، فنادى: يا كعب، قال: لبيك يا رسول الله، قال: ضع من دينك هذا، وأومأ إليه - أي الشطر - قال: لقد فعلت يا رسول الله،! قال: قم فاقضه.

وكان الخلفاء يقضون في المسجد. وقال مالك رحمه الله، القضاء في المسجد من الأمر القديم - يعني في أكثر الأمور - ولا بأس أن يجلس في رحبته ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض، ولا يقيم فيه الحدود ! (انظر القرطبي في تفسير قوله تعالى: (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) والشواهد كثيرة نضرب عنها صفحًا خشية الإطالة.

المسجد والتعبئة والترفيه:

لقد كان المسجد مكانًا للتعبئة الجهادية والإيمانية، فكما كان الصلة المباشرة الواضحة بين العبد وربه - من خلال ما يموج به من عبادات مختلفة - كان المكان الأمثل لشحن النفوس والقلوب بحبِّ الله تعالى وحبِّ دينه، وحبِّ الذود عنه وإبلاغه للعالمين.

وكما كان صلى الله عليه وسلم يعلم الناس فيه أمور دينهم - بالفعل وبالكلمة وبالموعظة البليغة التي تذرف منها العيون وتَجلُ القلوب - كان يشحن نفوسهم بحب الجهاد والرياضة الجهادية الجادة والترفيهية ، فقد ورد في الصحيحين وغيرهما عن سيدتي عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون في المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى لعبهم.

وكان من عادة الفقهاء والمحدثين في مجالس الحديث والعلم أن يُطَعِمُوها أحيانًا بأشياء من النوادر والفكاهات ، وإنشاد الشعر والحكايات والقصص ؛ ترويحًا، قال العراقي في ألفيته:

واستحسن الإنشاد في الأواخر   بعد الحكايات مع النوادر

وعقد الخطيب في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع بابًا بعنوان: ختم المجالس بالحكايات ومستحسن النوادر والإنشادات ، وكانوا يسمونها (الأبازير) يعني البهارات والتوابل! (المنجد: فقه البدائل الترفيهية).

المسجد تجميع:

كذلك كان المسجد فرصة للاجتماع في المناسبات الكونية والدينية، لربط الناس بسنن الله تعالى، وتعريفهم بما يجب عليهم إزاءها، كما ورد في الصحيحين وغيرهما عن الكسوف والخسوف، وعن الاستسقاء، وصلاة الجنازة، والاجتماع في الجماعات والجمع، وقيام رمضان، والاعتكاف، وغير ذلك مما يقوي صلة المسجد بالمجتمع المسلم بالخارج، والأمثلة على هذا كله تطول، لكن أكتفي هنا بمثال واحد حصل ذات جمعة:

ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رجلًا دخل المسجد يوم جمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فقال: يا رسول الله: هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: (اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا).

قال أنس رضي الله عنه: والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلْع من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا!

ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله: هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: (حوالينا لا علينا. اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية، ومنابت الشجر) فأقلعت، وخرجنا نمشي في الشمس. (للمزيد من التفصيل يرجى الرجوع لكتبي عن المساجد ودورها).

كلما دخل عليها زكريا المحراب

المساجد اليوم

ولو ذهبنا نفصل الدور التصحيحي والتعليمي والاجتماعي للمسجد لطال الأمر، فليس دوْرهُ– كما يتبادر إلى أذهان أبناء القرن العشرين ، وكما استقر في عقولهم – مقصورًا على تعليم العبادة، بل كان يرفد الحياة بأشكالها كافة، ويمدها بزاد طاهر عظيم.

ولا شك أن هذه العمومية والسعة في عطاء المسجد ضرورة أملتها طبيعة المكانة التي شرف الله عز وجل بها مساجد الله، التي يعمرها (من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله) والتي (أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) تبارك وتعالى.

والمدهش أن الكنائس التي عاشت قرونا متطاولة عاكفة على نفسها، بعيدة عن حركة المجتمع ترفع شعار (ما لقيصر لقيصر وما لله لله) تطور باستمرار خطابها، ودائمًا تحاول اكتساب المزيد الشمولية، والتعامل الواسع مع حركة المجتمع، وصارت تتدخل في المجاعات والكوارث، وفي مناهج التعليم، والإعلام ، والعمل الاجتماعي، والترفيهي، وتمول أفلامًا تتكلف عشرات الملايين وتؤسس عشرات القنوات الفضائية، للدعاية، والتنصير، واكتساب الشعبية، وإحياء الأصولية النصرانية، والأثر العام على المجتمع، بل على الدنيا كلها.

حتى السياسة التي أشاعوا أنه لا دخل للدين بها وجدناهم يحركون الكثير من رجالاتها، بل إن منهم من تبوأ سدة الحكم كالأسقف المتطرف مكاريوس في قبرص، والكاهن أريستيد في هاييتي، والجنرال سين في الفلبين، وعدد من الأحزاب المسيحية في إيطاليا وألمانيا وأسبانيا وغيرها، وقرأنا عن ألوف المراكز التنصيرية التي تهتم بحفر الآبار، ومداواة الماشية، وتوزيع الكتب، والترفيه، لئلا تكون بمعزل عن الناس وأحوالهم وهمومهم ومقتضيات حياتهم.

ومن المؤسف أنه بينما تتجه الكنائس هذا المنحى الشمولي، رأينا دور المسجد يتقلص، ونوره يخفت، حتى باتت معظم مساجد المسلمين مباني بلا روح، واقتصر أمرها على صلوات الجماعة والجمعة، وعلى دروس يسيرة، كثيرًا ما تكون

مملة، خالية من الروح والتأثير. فكيف نعود بالمسجد مرة ثانية إلى الممارسة الكاملة والواعية لدوره الاجتماعي؟   وكيف نعيد ربطه بحياة المسلمين؟هل المسجد مجرد مبان وأنوار، ومئذنة وسجاد مزخرف؟ أم إنه روح يبعثها الخطيب المحتسب الواعي، ذو السلوك القويم، والطاقة الدائبة التي لا تكل؟

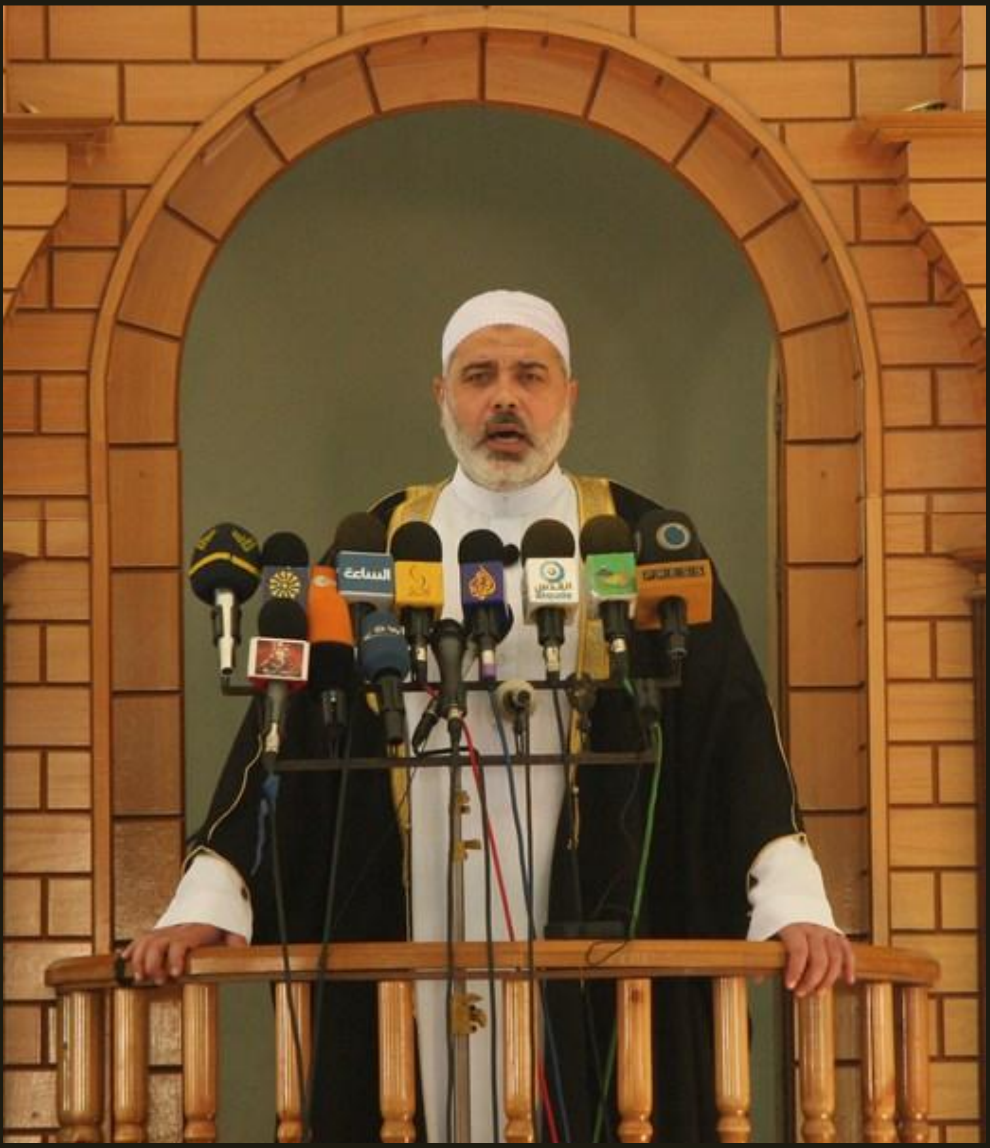

ماذا نريد من الخطيب؟

وما المحاذير التي يجب الانتباه لعقابيها؟

الخطيب والمجتمع:

إن مهمة الخطيب مهمة شريفة جليلة القدر؛ لأنها خلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ يوم الجمعة، وتوقيع عن رب العالمين تبارك وتعالى!

وإن الذي يرقى درجات المنبر إنما يقف في واقع الأمر في مكان عظيم القدر، ليبلغ أحكامًا، ومواعظ عظيمة القدر : فهي أمُر بمعروف، ونهي عن منكر، وتصحيح لعقيدة، وترغيب وترهيب، وذكر ودعاء، فلا ينبغي أن يقع في روع امرئ من الخطباء أنه على ثغرة هينة أووضيعة، كما نسمع عن كثيرين ممن درسوا الشريعة، ويتهربون من الخطابة وفضلها، فإن هذا الظن مزروعٌ بقصد؛ لصرف الناس عن دين الله تعالى، وعن شرف البلاغ: ولا أشك أن الدعاة الراشدين هم من أعلى الناس مقامًا عند الكريم المنان سبحانه: (ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله، وعمل صالحً ا، وقال إنني من المسلمين)!؟ فصلت: 33، إن الله تعالى يشهد أنه لا أحد أحسن من الداعية العالم العامل، وكفى بالله تعالى شهيدًا.. هذه واحدة.

والثانية أن الخطيب – وأي داعية – واحد من أفراد مجتمع الدعوة، والمفترض أنه يعرف أحوال الناس في البيئة التي يتحرك خلالها: مطلع على عوائدهم، وأساليب حياتهم، وما يكتنفها من إيجابيات وسلبيات، ومزايا ورزايا، وأخطاء وخطايا. والمفترض فيه أيضًا أن يكون ذا وعي تامًّ بالتحديات، والصعوبات التي تواجه حياة الناس حوله؛ ليستخرج من خلالها موضوعات دعوته، فإن الناس – فيما وجدنا – يفتحون قلوبهم وعقولهم لمن يحدثهم عن أنفسهم، وعن همومهم!

وواضح جلي أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يكثر الحديث مع المسلمين بشأن معاملة نسائهم، وتربية أبنائهم، وعن مكاسبهم وأموالهم، كما كان يحدثهم عن هيئاتهم وثيابهم وعوائدهم وأخلاقهم، وينبههم إلى أخطاء واقعة في معتقداتهم وعبادتهم، أو مواريثهم التي ورثها بعضهم عن الجاهلية الأولى.

فكان عليه الصلاة والسلام مصلحًا للسلوك والأخلاق والعوائد الاجتماعية، بجانب إصلاحه للعقيدة والعبادة.

وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على التواصل الاجتماعي الصحيح، فندب إلى القيام على الأرامل واليتامى والفقراء، وكان يعود المرضى، ويشيع الجنائز، ويشارك في الأفراح، ويجيب الدعوات، ويسعى في الصلح بين المتخاصمين، وغير ذلك.

فلا يتوهمنّ متوهم أن سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم لإصلاح الناس كان قاصرًا على خطبة جمعة، أو نصيحةٍ بالمسجد، بل كان حضوره الاجتماعي بارزًا بوضوح شديد.

وسأسوق بعض النماذج للعلاقات الاجتماعية التي مارسها المصطفى صلى الله عليه وسلم – قولًا وفعلًا – بقصد إصلاح القلوب والنفوس، والفرد والمجموع.

في العمل الاجتماعي الواسع:

1 في تطهير الطرق وتنظيفها: في الصحيحين عن سيدي أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: الإيمان بضع وستون – أو وسبعون – شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ... الحديث.

2 في الرفق بالحيوان: في الصحيحين عن سيدي أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً، ثم أمسكه بفيه، حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله: إن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (في كل كبد رطبة أجر).

3 بذل المعروف عمومًا: في البخاري عن سيدي جابر رضي الله عنه مرفوعًا: (كل معروف صدقة).

4 بذل المعونة الاجتماعية: في الصحيحين عن سيدي أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا: (على كل مسلم صدقة) قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: (يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق)، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: (يعين ذا الحاجة

الملهوف). قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال (يأمر بالمعروف أو الخير)، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: (يمسك عن الشر؛ فإنها صدقة).

5 حب الناس عامة: في الصحيحين عن سيدي أنس رضي الله عنه مرفوعًا: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

6 في حقوق المسلمين: في الصحيحين عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس)، ومن طريق أخرى عن البراء رضي الله عنه زيادة: (وإبرار المقسم، ونصر المظلوم).

7 وفي التكافل الاجتماعي: عن سيدي أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا في مسلم: (من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له)، فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.

8 وفي الاهتمام بالأهل عامة: عن سيدي وهب بن عبد الله رضي الله عنه في البخاري قول سلمان رضي الله عنه: إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم مقرًّا: (صدق سلمان).

9 وفي بذل المعروف المادي: في الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه مرفوعًا: (اتقوا النار ولو بشق تمرة).

10 وفي التنبيه إلى الخير: في البخاري عن سيدي أبي مسعود الأنصاري مرفوعًا: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله).

11 في رحمة المسلمين: ففي البخاري عن سيدي جرير بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)!

12 في البشاشة للناس أجمعين: في مسلم عن سيدي أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق).

13 في نصيحة المسلمين: في مسلم عن سيدي تميم الداري رضي الله عنه مرفوعًا: (الدين النصيحة: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

14 في السعي في حاجة المسلم : في الصحيحين عن سيدي ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله).

15 وفي الشفاعة للمسلم : في الصحيحين عن سيدي أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله علي لسان نبيه ما أحب).

16 وفي الإصلاح بين المسلمين: في الصحيحين عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة)... الحديث.

17 وفي الاهتمام بالفقراء والضعفاء : عن سيدي أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا: (ابغوني في الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم) أبوداود بإسناد حسن.

18 وفي اليتيم : في البخاري عن سيدي سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعًا: (أنا وكافل اليتم في الجنة هكذا..) الحديث

19 وفي الأرملة والمسكين : في الصحيحين عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله) وأحسبه قال : (وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر).

20 وفي حق الجار والضيف : في الصحيحين عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يوذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت).

21 وفي حق الوالدين وصلة الرحم: عنه في مسلم مرفوعًا: (لا يجزى ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه).

وعنه في الصحيحين مرفوعًا: (من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه).

22 وفي الأدب مع المسلمين: صح في أبي داود عن سيدي أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعًا: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك الجدال وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب – وإن كان مازحًا – وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه).

23 وفي توجيه العلاقات الإنسانية : في الترمذي بإسناد لا بأس به عن سيدي أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: (لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي).

24 وفي زرع العفة والعزة: في البخاري عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله).

25 وفي التواضع للمنكسرين والفقراء: في البخاري عن سيدي أنس رضي الله عنه : إن كانت الأَمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت.

26 وفي العفو والتسامح: في مسلم عن سيدتي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينهتك شيء من محارم الله، فينتقم لله تعالى).

هذا غيض من فيض تزخر به السنة المشرفة ؛ مما يحث على الحياء ، وحفظ السر، والوفاء، وطيب الكلام، وطلاقة الوجه، والإصغاء للجليس، والتبشير والتهنئة بالخير، والتوديع، والمشاورة، وعيادة المريض، وآداب الطعام والشراب، واللباس، وآداب الطريق، والسلام، وتشييع الجنائز، وآداب السفر، والفضائل العامة، وحفظ أعراض الناس، ثم ما ورد من ذم الخصال الشيطانية كالغيبة، والنميمة، والكذب، والحسد، والإفساد بين الناس، وشهادة الزور، وسب الناس ولعنهم، والتجسس عليهم، والغدر، والمن، والرياء، والتقعر، والكبر، والبطر، والفحش، والبذاء، وغير ذلك من الأخلاق التي يتنزه المسلم عن الارتكاس في حمأتها.

وإزاء هذه الشمولية العظيمة، والحضور الاجتماعي غير المنكور، لا يليق بالخطيب الداعية أن يظن أن دوره ينتهي عند عتبات المسجد الخارجية، بعد أن يؤدي خطبة الجمعة، أو يلقي درسًا كل عدة أيام؛ فهذا جانب واحد يسير من جملة ما يقوم به الخطيب من تغطية اجتماعية صحيحة يقظة، بالقدر الذي أشرنا إليه في نقلنا عن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في التعامل مع المجتمع.

إن الخطيب يعيش في بيئة متعددة الجوانب، وعليه أن يستوعبها كل الاستيعاب، وأن يعايش جهوره معايشة لصيقة، تحببه إليهم، وتحبب دعوته إلى نفوسهم، من خلال سلوك نموذجي، فللناس مشاكل مع أبنائهم، ومع زوجاتهم وجيرانهم وأرحامهم، ولهم طموحات وتساؤلات عن تجاراتهم وأموالهم وأبدانهم وعلاقاتهم، فمن يجيبهم عن مسائلهم، ومن يشبع اهتماماتهم بطريقة شرعية توافق الكتاب والسنة غير الخطيب الموهوب؟!

ضرورة إحياء دور المسجد الاجتماعي:

إننا لا بد أن نتضامن على إعادة المسجد –كما كان – منارة إشعاع، وملاذًا للمحتاجين، ومستقرًّا لطلاب العلم الشرعي، ومقرًّا للتعبئة الإيمانية والجهادية، ومكانًا للمشاركات الاجتماعية المباحة.

ولا شك أن هناك توجهًا حسنًا في بعض بلاد المسلمين لإقامة ملاحق بالمساجد تضم مستشفيات شعبية، ومدارس للتقوية، وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، ودُورًا للمناسبات الاجتماعية كالاحتفال بالأعراس وما شابه!

لكن لا أزعم أن هذا عام أو منتشر، بل هو في مساجد قليلة، بل إنه لا فرصة في أغلب المساجد لدروس النساء أو الأطفال مثلًا، اللهم إلا في رمضان حين يتجمع بعض العجائز لحضور التراويح.

ويمكن بمعونة الله تعالى، ثم بمعونة الأجهزة الحكومية للخدمات الاجتماعية، وبمناصرة بعض أهل الخير، وأصحاب الوقف الإسلامي الخيري، أن تقوم المساجد على مشروعات اجتماعية هامة، تناسب الواقع والبيئة الدعوية، وتخفف عن المسلمين الكثير من المعاناة.

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

لجان تعمير المساجد – لجان الإرشاد الاجتماعي – أقسام مكافحة الأمية – لجان الزكاة والإحسان – لجان رعاية الطفولة المشردة – أندية الرياضة والكشافة – رعاية المعوقين والعجزة والمسنين – أقسام تحفيظ القرآن الكريم – إنشاء دور الدعوة والضيافة العامة)!

وهذه كلها قوالب أو وسائل تتم الدعوة من خلالها بطريقة إيجابية، تربط المسلم بدينه وبإخوانه، وتوثق العلاقات، وتقيم الرقابة الاجتماعية والتكافل الإسلامي المبني على الأخوة الإيمانية التي دعا إليها الكتاب والسنة.

محاذير اجتماعية يقع فيها الخطيب

- أولًا: ترك الاحتساب في الدعوة:

إن من أهم ما أحب لفت الأنظار إليه أن على الخطيب – في حركته الاجتماعية – أن يحتسب جهوده ، ولا ينتظر لها عائدًا إلا من الله عز وجل؛ فقضية الاحتساب ذات أولوية – أو هكذا ينبغي – في نفس المسلم العادي، فضلًا عن الخطيب الداعية (في زماننا ابتلينا بدعاة يتحركون بالدولار، ويشترطون للمحاضرة أو الندوة كذا وكذا، وقد رأيت عناصر منهم، ما لبثت أن تعرت؛ فسبحان الله العلي العظيم، وعهدنا بالمشايخ الصادقين أنهم ينفقون من جيوبهم الحطام الذي يملكون، ويحسبهم الجاهل أغنياء من الاستتار، والبذل والتعفف)!

ولنا في رسل الله تعالى الأسوة الحسنة، إذ قالوا جميعا لقومهم: (ما أسألكم عليه من أجر) الشعراء: 109 وغيرها، وخاطب المصطفى صلى الله عليه وسلم قومه قائلًا: (ما سألتكم من أجر فهو لكم، إن أجري إلا على الله، وهو على كل شيء شهيد) سبأ: 47، والأعمال بالنيات والمقاصد كما صح عن سيدي النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين، وهو عز وجل لا ينظر إلى الأجسام والصور، بل إلى القلوب والنيات، كما ورد في مسلم عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه.

فالداعية المحتسب يختلف كليةً عن المرتزق، والداعية الذي لا يهزه إلا تقوى الله تعالى، غير الداعية الذي يتحرك في حدود المرتب أو العائد الاجتماعي مثلًا.

ولعل هذه النقطة تبين عدم فاعلية وجدوى جهود كثيرين من هواة الخطابة ، ومحترفي الوعظ، ومدمني القصص الديني، وغيرهم ممن لا تشكل الدعوة لديهم أولوية حياتية، أو لا يعدونها غاية تقصد لذاتها، بل هي وسيلة ومطية لمنافع يبتغونها.

وليست هذه النقطة – الاحتساب – مطلوبة في الخطباء فقط، بل يشبههم في ذلك كل العاملين بالمساجد، من أئمة وعمال ومؤذنين، فإن الذهن العامي يرى في هؤلاء جميعًا – حتى الفراشين والمؤذنين وعمال التنظيف والحراس – يرى فيهم مطّوعين أو شيوخا أو (رجال دين)! وذلك كله بسبب التخليط، وعدم الوضوح.

لذلك كان من المهم جدًا – وهومطلب مثالي وعسير – اختيار المحتسبين لأداء هذه الأعمال كلها ؛ حتى ولو كانوا يتقاضون رواتب وأجورًا مقابل تحبيسهم على الخدمة أو الإمامة أو الدعوة! وقد يكون فرض راتب لهم أمرًا متحتمًا وفريضة لازمة – لكن لا يصعب في ظني اختيار العناصر الحسنة، وهذه مهمة القائمين على أمور المساجد وإدارتها.

- ثانيًا: نقل أمراض بيئات غريبة إلى بيئة الدعوة:

وهذه النقطة من الأهمية بمكان، فقد يكون الداعية ممن نش ؤوا في منطقة لها خصوصياتها، وأساليبها الدعوية، وأمراضها البيئية والعقيدية، فإذا انتقل إلى بيئة أخرى نقل معه قضايا كانت تثار هنالك في بيئته الأولى، حيث لا يتصور الناس، ولا يفهمون كثيرًا مما يقول، وهذا واضح جدًا في بعض الإخوة الذين انتقلوا إلى أوربا وأمريكا للعيش، أو للدراسة، أو للدعوة، فتراهم ينقلون معهم أمراض بيئاتهم، ومشاكلها الفكرية، وخلافاتها الحزبية، وعصبياتها المذهبية!

ولقد رأيت وحاورت وواجهت مسلمين في أوربا نقلوا معهم أفكارًا تدور على الغلو، أو التسيب، أو التكفير، أو الابتداع، أو العصبية، أو غيرها. حتى باتت بعض الجاليات المغتربة مصطرعا لقضايا ومشكلات، هم أغنى الناس عنها، إذ يعيشون في بيئات تحتاج إلى فقه واقعي، وإدراك للحال، وترتيب للأولويات.

ويشبه هذا أيضا ما يقع في بعض الدول التي تستورد الدعاة والخطباء – من جملة ما تستورد – فتجد منها خطباء من الهند، وبنجلاديش، والشام، ومصر وغيرها. ويأتي كل واحد من أولئكم بمناهج، وعادات، ونظرات، كثيرًا ما تكون بعيدة عن واقع الناس في بلد العمل وهمومهم، لذلك فإن مثل هؤلاء الخطباء والدعاة يكونون محتاجين لتأهيل وإعداد مسبق، قبل أن يتحرك أحدهم بدعوته، ليدرس واقع الناس ومستواهم المعيشي، والتعليمي، والحضاري، ويتعرف على عقائدهم، وعوائدهم، وعلى الصعوبات التي تواجه الدعوة هناك، وعلى التسهيلات التي يمكن أن تعينه؛ ليتحرك بعد ذلك من خلال رؤية واضحة، وفقه واقعي حسن.

- **ثالثًا: الانفصال العقلي عن العصر وعن البيئة:**

مع قصور الوعي ، والنظر إلى زاوية ضيقة من زوايا الإسلام ، واعتبارها الدين كله، قد يعيش الخطيب الداعية حالة من الانكماش الدعوي، والغيبوبة الذهنية عما يدور حوله من متغيرات، وما يجدُّ من قضايا تحتاج إلى نظر جديد، وإجابات ملائمة.

ومخاطبة الناس بما يلائم أحوالهم أصل في أداء الداعية الموفق المتبع للسنة؛ فلقد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتي آحاد الناس في المسألة الواحدة بفتاوى مختلفة، تناسب حال كل واحد من البداوة أو الحضارة، ومن القدرة والعجز، ومن مجموع صفاته الإيجابية والسلبية الغالبة، فإذا جاءه رجل يستوصيه وعلم منه اندفاعًا قال له: (هل تملك لسانك؟ هل تملك يدك؟ فلا تقل بلسانك إلا معروفًا، ولا تبسط يدك إلاَّ إلى خير)! السلسلة الصحيحة عن سيدي أسود بن أصرم المحاربي!

ويجيئه ثانٍ يستوصيه فيقول له صلى الله عليه وسلم مرارًا: (لا تغضب) البخاري عن سيدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه..

ويسأله صلى الله عليه وسلم ثالث فيقول له: (قل آمنت بالله، ثم استقم) مسلم عن سيدي سفيان بن عبد الله رضي الله عنه!

ويسأله رابع فيأخذ صلى الله عليه وسلم بلسانه ويقول: (أمسك عليك هذا) الترمذي بسند صحيح عن سيدي معاذ رضي الله عنه!

فإذا سأله خامس كان الجواب: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة عن سيدي سهل بن سعد رضي الله عنه!

فإذا استوصاه آخرون بعد ذلك قال صلى الله عليه وسلم لهم: (أوصيكم بالسمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبد؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرًا) أبو داود والترمذي عن سيدي العرباض بن سارية رضي الله عنه بسند صحيح!

وهكذا نلحظ منه صلى الله عليه وسلم تعدد الإجابات ؛ من خلال معرفة واعية، ونظرات ثاقبة، ودراية بالأشخاص السائلين وأحوالهم.

إن المجتمعات المعاصرة تمر بقضايا جديدة كثيرة جدًّا تحتاج إلى إجابات قد يعسر الحصول عليها من بطون الكتب القديمة..

كما أن البيئات – كما ذكرت آنفًا – تختلف بداوة وحضارة، وعلما وجهلًا، وتمسكًا وتفلّتًا، فإذا انتقل الداعية من إحداها لأخرى كان عليه أن يلاحظ الفروق، كما فعل سيدنا الشافعي رحمه الله حين انتقل من بغداد إلى مصر، وصار له – كما تدون كتب الفقه – رأيان: قديم، وجديد.

إن الداعية الذي يعمل وسط فقراء يقاسون من شظف العيش، وخشونة الحياة، يجمل به أن يحدث الناس في الصبر، والزهد في الدنيا، وكسب الحلال، والجد في تحصيل المعايش، وهذا أولى من أن يحدثهم عن أحكام كنز الأموال، وتحريم أواني الذهب والفضة، وعن حكم استخدام الساعة الذهبية، والقداحة البلاتينية.

وبالجملة فإن على الداعية أن يكون واقعيًّا في دعوته، ملاحظًا لأحوال المدعوين، وهمومهم، وتساؤلاتهم المعلنة أوالمكتومة، ويبحث لهم عن إجاباتها الشافية، ولا يكون من أولئك الذين يستخدمون الخطب "المعلبة " في كتب الخطب، ولا الذين يحلقون بهم في معانٍ تجريدية ، بعيدة عن أفهامهم وواقعهم، ولا من أولئك الذين لا يكادون يشعرون بما يدور حولهم من هموم المسلمين، ولو كانت صارخة بينة!!

رابعًا: عدم مراعاة حال المخطوب فيهم:

قد يكون الخطيب معجبًا بنفسه وبأدائه، فيحرص في خطبته على الإطالة والإطناب، في حين ينتظر منه التقصير والاختصار، لوجود الكبير والضعيف وذي الحاجة، كما ورد في الحديث الصحيح مسلم وغيره: (إن من فقه الرجل قصر خطبته وطول صلاته، فأقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة).

وقد يستشرف الجمهور من الخطيب الحديث في مسألة مهمة من واقع الناس – كمشكلة عامة، أو كارثة، أو جريمة، أو ما شابه – ويحتاج الناس إلى من يروي فضولهم، ويقطع تساؤلاتهم، فإذا بالخطيب يكلمهم في قضية بعيدة، أو قليلة الأهمية.

وقد يميل إلى التقعر اللفظي، والإغراب في العبارات وسط قوم ريفيين، أو بداة محدودي الثقافة، أو – على العكس من ذلك – يسطح عباراته، ويسف في حديثه فينزل إلى عامية مبتذلة دون مستوى الناس، فيصغر ودعوته في عيونهم.

وهذا يعد في زعمي من قلة الفقه، وعدم مراعاة الحال، بينما أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم.

- خامسًا: العجز عن تقديم قدوة صالحة من نفسه

نتيجة للتساهل، أو الدس، أو سوء الفهم والمغالطة قدمت وسائل الإعلام في جملتها صورة الخطيب والداعية بإيحاءات تبعث على الزراية، والانتقاص، وسوء الظن. وقد يصدق بعض من الخطباء أوالعاملين بالمساجد هذه الصورة من خلال سلوك معيب، أو تقصير فيما ينبغي عليه – دعوةً –، وذلك حين يلحظ المجتمع عليه شيئًا من سوء الأخلاق، أو خبث المكاسب، أو عدم الإخلاص في أداء الوظيفة.

لذلك فإن من الحتم على الخطيب أن يجمع – في حركته الدعوية – الحسنات السلوكية والنفسية، لأنه في محل القدوة، فلو لوحظ عليه شيء من التقصير – وإن كان العامة يلاحظونه فيما بينهم ويمارسونه – لعد في حقه عيبًا، فأولى له – إذا أراد أن يحظى بالقبول – أن يحرص على تطبيق السنة ما أمكن ؛ في صلاته، وفي كلامه، وفي بيعه، وشرائه، واحتكامه.

ولا بد أن يتمتع بالكثير الكثير من الرفق، وحسن السيرة، والسعي في قضاء حوائج الناس، ومساعدتهم، ومشاركتهم أحوالهم الاجتماعية ومناسباتهم المختلفة، وأن يكون ذا صلات حسنة بجيرانه، وأرحامه، ومعارفه، لا يحتجب عنهم، ولا يتثاقل عن خدمتهم، مع احتفاظه الكامل بعزة المؤمن، وكرم نفسه، وعدم تنازله عن شيء مما لا ينبغي التنازل عنه، فإن فعل كلل الله سعيه بالتوفيق والقبول، وإلا فإن الله تعالى يضع له البغض في الأرض، فلا يكون لكلامه ثمرة، ولا يجني من خطبه إلا أن يقيم الحجة على نفسه بين يدي ربه عز وجل.

نموذج من خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم

لا نرى مفرًّا في هذه العجالة من أن نأخذ إحدى خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذجًا للخطبة الجامعة، التي تتناول مقاصد عقيدية وأخلاقية واجتماعية، لنتأكد من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان محيطًا بما يدور حوله، عارفًا بأحوال الناس، حريصًا على حل قضاياهم، والإجابة عن تساؤلاتهم..

وهذا النموذج الذي نختاره هو خطبة المصطفى صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وقد ورد نصها في صحيح مسلم عن سيدي جابر رضي الله تعالى عنه، مع بعض الزيادات التي وردت في سيرة ابن هشام 4/ 250، كما وردت بالبيان والتبيين ج4/ ص 31، وفي الكامل لا بن الأثير، وغيرها من الكتب..

وفي هذه الخطبة يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقاط التالية بعد المقدمة والثناء على الله تعالى:

1 الوصية بتقوى الله تعالى، والحثّ على طاعته. (تربية).

2 بيان حرمة دماء المسلمين، وأموالهم كحرمة الموسم (حقوق إنسان).

3 أداء الأمانة (معاملات).

4 تحريم الربا، وإسقاط كسبه الخبيث، وإسقاط دماء الجاهلية (اقتصاد).

5 سقوط مآثر الجاهلية في معظمها، وبيان حكم العمد وشبه العمد (ثورة على الشر).

6 عدم طاعة الشيطان في محقرات الذنوب (بناء الشخصية السملمة الإيجابية)!

7 تحريم النسيء الذي كانت تفعله العرب (النظرة الحضارية للزمن).

8 بيان حقوق النساء وما لهن وما عليهن، والتشديد على الوصية بهن (تحرير وحقوق).

9 التذكير بأخوة المؤمنين، وتحريم أموالهم – إلا بحق –وتحريم الشقاق والخلاف (اجتماع، وأمن).

10 بيان أن المسلمين جميعا سواء، لا فضل لأحدهم على غيره إلا بالتقوى، أو عمل صالح (حقوق إنسان، وعدالة اجتماعية)!

وهذه النقاط توضح بدون أدنى شك حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو الناطق عن وحي ربه عز وجل – على سلامة المجتمع، وملاحظة ما فيه، والقيام عليه بالنصيحة والعناية والاهتمام.. (انظر مزيدًا من التفصيل في كتابي عن خطبة حجة الوداع)

قال ابن إسحق رحمه الله تعالى:

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربًا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم؛ لا تظلمون ولا تظلمون.

قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا في بني ليث، فقتلته هذيل؛ فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد؛ أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به، مما تحقرون من أعمالكم؛ فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله.

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند

الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرم: ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقًّا، ولهن عليكم حقًّا: لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة؛ فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح؛ فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوانٍ، لا يملكن لأنفسهن شيئا. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله..

فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرًا بينًا : كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه؛ تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم..

اللهم هل بلغت؟

فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد.

من قرارات وتوصيات رسالة المسجد

المنعقد في مكة المكرمة بدعوة من رابطة العالم الإسلامي

في رمضان 1395هـ سبتمبر 1975م

يوصي المؤتمر بما يلي في اختيار الإمام والخطيب:

1 أن يكون قوي الصلة بربه عز وجل، وقدوة لغيره. آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، قادرًا على الجهر بكلمة الحق.

2 أن يقصد بما يقدمه من أعمال وجه الله تعالى، والدار الآخرة، وأن يبتعد عن الرياء والمجاملة.. الخ.

3 أن يكون دائم الصلة بالكتاب والسنة، دراسةً وتأملًا واستنباطًا وعملًا.

4 أن يكون دقيق الفهم، واسع الاطلاع، محيطًا بالبيئة التي يعيش فيها إحاطة تامة بأحوالها وظروفها، والتيارات والتحديات التي تتعرض لها.

رسالة المسجد

1 ضرورة التنسيق بين المسجد والوسائل الإعلامية والمؤسسات التربوية حتى تخدم جميعها عقيدة المسلم، وتصحيح سلوكه حسب تعاليم الإسلام.

2 التوسع في إنشاء المساجد المتعددة الخدمات، والتي توفر لروادها إشرافًا ثقافيًّا واجتماعيًّا وتربويًّا.

3 من الضروري أن ينهض المسجد برسالته ، في جميع الأماكن التي توجد فيها تجمعات إسلامية ؛ كالمدارس والجامعات والمصانع والأندية والثكنات، والمعسكرات وغيرها.

4 ضرورة إحياء الرسالة التعليمية للمسجد ؛ بما يجدد ماضيه العريق، ودوره الهام في حياة المسلمين.

5 يوصي المؤتمر بأن تكون للإمام حصانة، تكفل له استقلاله الفكري، ورأيه الحر في تناول مشاكل المسلمين، وقضاياهم في إطار الشريعة الإسلامية.

6 عقد اجتماعات دورية لأئمة المساجد في كل منطقة لتبادل الخبرات والتجارب، ودراسة المشاكل التي تعترض مهمة المسجد، ووضع الحلول المناسبة لعلاجها بما يتفق وصالح المسلمين، في الإطار الإسلامي الصحيح.

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك، ونتوب إليك.

17/ 11/ 1991